جامعة جيلالي بونعامة–خميس مليانة

قسم العلوم الاجتماعية

الدكتور : موسى فتاحين

خاص بماستر 1، فلسفة عربية و إسلامية

محاضرات في مناهج البحث عندي مفكري الإسلام

الأولى : التأسيس لإشكالية البحث في مناهج البحث عند المسلمين

تمهيد : تمثل الأفكار و الإنتاج الثقافي عند الأمم و الحضارات شهادة ميلاد أصلية تستدل بها لحضورها في الزمان و المكان، وقد اشتدت المعارك حول الحمولة الثقافية بداية من العصر الحديث فصار التعتيم و الطمس سلاح تغليط و تلبيس من قبل بعض الباحثين الغربيين و المستشرقين منهم خاصة . و مادام لكل أمة و حضارة لها الحق في إثبات ذاتها و أصولها و المسلمين كغيرهم من الأمم – على غرار الهنود و العرب و الصينيين – وصلتهم شظايا تدفعهم إلى الإقصاء و الطمع لغرض تهيئتهم للخضوع و التبعية . فصدرت منشورات كثيرة و كتبا عديدة تناقش هذا الموضوع ، و أخطرها الكتب و المقالات ...التي تعتبر المسلمين مُقلِّدين للغرب و تلاميذ منفعلين مستهلكين في مجال البحث العلمي و الفلسفي، بقوا سجناء المنهج الأرسطى الاستنتاجي (نظرية القياس الأرسطية) .و اعتبروه القانون الذي لا يُردّ. فهل صحيح إنّه لا يوجد في التراث المنهجي الإسلامي ما يدلّ على أصالة المنهج عند المسلمين؟

فقبل أن نشرع في تحليل الإشكالية لابد من المرور على مميزات المنهج الأرسطي في البحث عن الحقائق كما عرفها (ارسطوطاليس) في القرن الرابع قبل الميلاد، المنهج الإستنتاجي (القياس) الذي ظل قرونا طويلة يسطر على الفكر البشري و يعتمده كآلة ضرورية وحيدة للوصول إلى تفسير الكون و الوجود و الحقائق . و قد جاء مشروعه المنهجي في ستة كتب أهمها و أقومها (كتاب التحليلات الأولى و الثانية) الذي رسم فيه أصول البرهان و الصور الذي يتحرك فيها.

هذا، و لو رجعنا قليلا إلى مختلف القواعد التي اكتشفها أرسطو في الأُرغانون لوجدنا أنها تقوم على مبدأين أساسيين ، أولها : مبدأ الهوية الذي يقرّ بثبات الموجودات و الحقائق على حالها و لا تتحول من حال إلى حال (الحد الأوسط لابد أن يبقى ثابتا في مقدمات الاستدلال لصحة صورة القياس) و مخالفة هذا يؤدي إلى أغاليط منها أغلوطة الحد الرابع). و الثاني: يقوم على مبدأ عدم التناقض ، يستحيل الجمع أو تحول موجود إلى حال مناقضة له.

هذا الذي يطفو على المنطق الارسطي و نظريته في الاستنتاج ، فكيف وصل الى المسلمين؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال هو من صميم تاريخ العلم و تاريخ انتقال الأفكار من حضارة إلى حضارة و تحولها من حال إلى حال في الأمة الواحدة. إذ إنّه يكاد يتفق الباحثون على أن المسلمين عرفوا المنطق

من خلال كتب أرسطو التي ترجمها و نقلها العلماء الى العربية و السريانية في مرحلة العصر العباسي في عهد بني أمية (40-132هـ)، فضلا عن احتكاك المسلمين أثناء الفتوحات و بعدها مع غيرهم من الحضارات الأخرى، و أوّل ما نقلوه و ترجموه من الكتب هي كتب المنطق لأرسطو (على سامي النشار ، مناهج البحث عند مفكري الإسلام،ص 19)، و ساعد هذا الاحتكاك على نقل العلوم و الثقافات عندما أدرك المغلوبين على أن الإسلام في خصوصياته يساعد على ذلك، و المساواة بين غيرهم حرّكت التأقلم و التلاؤم ،و ووجدوا الانفتاح و حرية التفكير التي أتاحت المسيحيين و اليهود حرية المناقشة و العرض و الجدال و الحجاج (مناظرات كثيرة في البيئة الإسلامية) (انظر الملل و النحل للشهر ستاني، نشرة، 1320هج1، ص58)، و حتى الكنائس سمح لها أن تتحول إلى مدارس تلقن فيها العلوم و الفلسفة اليونانية (Max Maythoof. Transmission of Greek sciences to Arabic world Islamic culture 1936).

و من هنا، من الجحود أن نتنكّر للتفاعل بين الثقافات و حضور كتب منطق الارسطيين في حمولة ثقافة المسلمين [1]،(ترجمة كتب أرسطوطاليس المنطقية الثلاثة في صورة المنطق،كتاب كاطيغورياس و كتاب باري ارمنياس و كتاب أنالوطيقا الأولى و كتاب ايساغوجي لفورفوريوس) لكن التعصب لهذا التأثير و إنكار صور الابتكار عند المسلمين فيه نوعا من الإقصاء و الطمس . فلا يتيسّر لنا المقام لمناقشة حجج الجاحدين لجهود التراث المنهجي ، لهذا نكتفي بالأدلة التي تثبت حضور إسهامات المسلمين في مجال العلوم و مناهجها و أصالتها فيه ما يكفي للرد القوي الذي يزول الشك به. و رأينا أنّ التركيز على أصالة المنهج أحسن طريقة لفهم المشكلة و أقوم مسلك لتنقية التراث الإسلامي العلمي و المنهجي . فما هي حجج أصالة المنهج العلمي عند المسلمين ؟

المستقري لجهود المسلمين يكتشف بسهولة هذه الأصالة المنهجية لمدى انتشارها و تفعيلها في مختلف العلوم ، ارتأينا أن نبدأ دفاعنا لمنهج المحدّثين و الأصوليين ثم نحكم و نستنتج بموضوعية قيمة هذا المنهج العلمي و الأسس التي بني عليها.

[1]– انظر ابن ابي اصبيعة،عيون الأنباء ،ج2، ص 135

الثانية: مناهج البحث عند علماء الحديث (المحدّثين)

تمهيد :

تعتبر السنة النبوية المصدر الثاني في التشريع و العقيدة بعد القرآن الكريم ، تتضمن كل أقوال و أفعال و تقريرات سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام، عملا بقوله تعالى : (و ما أتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا و اتقوا الله إنّ الله شديد العقاب) سورة الحشر الآية7.

هذا،والمستقري لتاريخ صدر الإسلام و بعد انتقال سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام بالرفيق الأعلى و لأسباب داخلية كالإمام و السياسة و الاختلاف في الحكم و في التشريع ، و لأسباب خارجية – كالجدل مع خصوم الإسلام الدين الجديد – و المندسين في وسط جماعة المسلمين من المشركين و النصارى و اليهود روجوا لخصوماتهم بالتدليس في سند الرواية وفي المتن قصد التغليط و التقويل (انظر، الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، دائرة المعارف العثمانية2010،ص357)، و الوضع (و هو الحديث المختلق المصنوع و هو شر أنواع الحديث الموضوع) و الابتداع و تحصيف (تغيير في نقط الحروف و حركاتها مع بقاء صورة الخط) و تحريف (تغيير و تبديل الكلام بزيادة حروف او انقاصها) يقع على السند و رجاله أو يقع على ألفاظ المتن ، هي كلها طرق تقويل ؛ لغرض التشويش و صناعة الصراعات و تقوية هوّة الخلافات بين المسلمين لإضعافهم بالتشرذم و هو أخطر .

لكنّ الله قيّض للأمة الإسلامية علماء مجاهدون حرصوا على تنقية السنة من الشوائب بعدما اشتغلوا بالحديث رواية و دراية ، قال الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس: المحدث في عصرنا من اشتغل بالحديث رواية ودراية، وجمع بين رواته، واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره، وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه، واشتهر فيه ضبطه[2]. ما هو منهج المحدثين و الأسس و القواعد التي قام عليها و ما منزلته في البحث العلمي؟

لابد أن نعرف أن مهمتنا في هذا الدرس ليس الحديث كما قصده علماؤه، بل هي نظر في الأسس المنهجية فقط و نترك الباقي لطالبي علم مصطلح الحديث بصورة دقيقة و معمّقة كما أن الرجال الذين اهتموا بهذه الرسالة كثر (الإمام مالك، الليث بن سعد، الإمام البخاري، الإمام مسلم، الإمام بن ماجة،

[2]– محمد خلف عبد الفهداوي، مفهوم مناهج المحدثين، فوائد معرفتها،انظر ص02،
https://www.uoanbar.edu.iq/eStoreImages/Bank/2254.pdf

الإمام الترمذي، الإمام النسائي...و غيرهم. سنركز على اثنين منهم في هذا الباب، الإمام البخاري و الإمام مسلم لنستخلص أسس المنهج العلمي عندهما و نسحبه على العلم المعاصر.

فإنهم لم يدخروا وسعاً ولم يألوا جهداً في سبيل المحافظة عليها، وإبقائها سليمة من تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، فوضعوا لذلك منهجاً علمياً متميزاً وفريداً كان هو المعيار الذي توزن به الأخبار، وكان هذا المنهج نتاجاً لجهود عظيمة بذلها أئمة الحديث وحفّاظه من لدن الصحابة إلى أن استقرت قواعده، ورست أركانه، واتضحت معالمه، وأينعت ثماره في القرن الثالث الهجري. وكان من الأئمة الذين أسهموا في تشييد دعائم هذا المنهج الإمام الكبير أمير المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري 194 هج-810م-870م(رحمه الله تعالى) ولم تكن إسهامات هذا الإمام واضحة، لأنها لم تكن قواعد نظرية مجموعة في كتاب، وإنما كانت أعمالاً وتطبيقاً لتلك القواعد في ثنايا كتبه الكثيرة، ولعل أبرز كتب هذا الإمام بل أبرز كتب الحديث على الإطلاق – الجامع الصحيح – ففي هذا الكتاب ظهرت عبقرية هذا الإمام، فهو تطبيق عملي ودقيق لقواعد هذا المنهج، فكان بحق أصح كتاب بعد كتاب الله، فجاء هذا البحث ليستخرج ويستنبط أسس المنهجية التي يستعملها البخاري – رحمه الله – في تصحيح الأحاديث وتعليلها. وهذه القواعد جاءت مطبقة في كتابه ولم يصرح بها وإنما يستعان على كشفها بأقوال العلماء ممن اهتموا بالجامع الصحيح شرحاً وتعليقاً واستدراكاً وانتقاداً.

وهذا البحث محاولة للكشف عن منهج الأئمة النقاد في موضوع " النقد الحديثي " على اعتبار أن الإمام البخاري من أبرز هؤلاء الأئمة، والمسلّم له بالتقدم والمتمكن في هذه الصنعة[3]... لم يحظَ كتاب بعد كتاب الله من العناية ما حظيه صحيح البخاري، وكانت هذه العناية جهوداً علمية دقيقة في خدمة هذا الكتاب، فقد انتقل إلينا صحيح البخاري من مؤلفه إلى عصرنا عبر أيد علمية أمينة : سماعاً أو إجازة، أو مناولة، وميزوا بين الروايات المختلفة والنسخ وما بينها من فروق معزوة إلى أصحابها، وهذه الاختلافات سببها اختلاف الأوقات التي يسمع فيها تلاميذ البخاري منه، أو لبعض أخطاء النساخ(منهج الامام البخاري في تصحيح الأحاديث و تعليلها،رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، دار بن حزم،1998، ص40)

[3]– ابو بكر كافي، منهج الامام البخاري في تصحيح الأحاديث و تعليلها،رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، دار بن حزم،1998، ص12

هذا، والسؤال عن أسس المنهج في تصحيح الحديث لم يفرد لها (البخاري) كتابا نعرفه به، بل تجد قواعد المنهج مبثوثة في كتبه، و توصل الباحثون إلى استخلاصها من خلال تتبع نصوصه و تطبيقاته على مختلف الاحاديث التي غربلها. لم يحظَ كتاب بعد كتاب الله من العناية ما حظيه صحيح البخاري، وكانت هذه العناية جهوداً علمية دقيقة في خدمة هذا الكتاب، فقد انتقل إلينا صحيح البخاري من مؤلفه إلى عصرنا عبر أيد علمية أمينة : سماعاً أو إجازة، أو مناولة، وميزوا بين الروايات المختلفة والنسخ وما بينها من فروق معزوة إلى أصحابها، وهذه الاختلافات سببها اختلاف الأوقات التي يسمع فيها تلاميذ البخاري منه ص،40)

ما هي الشروط التي وضعها البخاري لتصحيح الحديث؟

مهمة المحدثين شاقة و عسيرة لمدى تدخل العوامل الذاتية فيها الإيديولوجيات و المذاهب و المصالح ، كلها تنتج التعصّب و التطرّف في الإحكام و التصرفات و تنعكس على التشريع و بناء العلاقات المختلفة. لهذا أدرك علماء الحديث هذه المهمة فسارعوا إلى تخليص الحديث من الزيف و التلبيس و التدليس، و كان الإمام البخاري من بينهم. فكيف بنى منهجه العلمي ؟

إنّ الإمام البخاري من يتوجه مباشرة إلى كتابة الجامع الصحيح و إنما كان الجامع ثمرة لجهد كبير و شاق تركّز على جمع الأحاديث و المسانيد و التواريخ ، و قام بالترتيب و التنظيم و التبويب ثم جاءت المرحلة الحاسمة و هي غربلة الأحاديث المجموعة المروية .

لقد نظر البخاري إلى الحديث من شقّين: شق السند و هو الذي يتضمن سلسلة الرواة الذين رووا الحديث ألزمه هذا الشق بتأسيس علم بهتم بالرجال و سيرهم يسمى علم العدل و التجريح و له قواعد و شروط صارمة . و شق يتضمن المتن أو العبارة التي ورد فيها الحديث كما نقل من راوي إلى راوي حتى تنتهي السلسلة بالنبي صلى الله عليه و سلّم.

1/ شروط السند:

عدالة الرواة: عرفها الإمام الخطيب البغدادي (ت 463هـ) نقلاً عن القاضي أبي بكر بن الطيب (ت 403هـ) بقوله : " العدالة المطلوبة في صفة الشاهد والمخبر هي العدالة الراجعة إلى استقامة دينه، وسلامته من الفسق، وما يجري مجراه مما اتفق على أنه مبطل العدالة من أفعال الجوارح والقلوب المنهي

عنها "[4] . " العدالة عبارة عن استقامة السيرة والدين، ويرجع حاصلها إلى هيئة راسخة في النفس تحمل على ملازمة التقوى والمروءة جميعاً، حتى تحصل ثقة النفوس بصدقه "[(5)]. و من خرق هذه الصفة (الشرط) ردّت روايته لأنها : أن العدالة هي الاستقامة في الدين بفعل الواجبات وترك المحرمات، كما نلاحظ أن جميع التعاريف لم تدخل الضبط والحفظ كشرط في العدالة إلا في تعريف ابن حزم – رحمه الله – ومن هنا نفرق بين نوعين من العدالة :

الأول : العدالة الدينية والمقصود بها الاستقامة في الدين.

والثاني : العدالة في الرواية والمقصود بها : حفظ الراوي وضبطه لما يرويه.

والنوع الأول هو المراد عند إطلاق المحدثين أو الفقهاء. كما نلاحظ أن هذه التعاريف قد تعرضت لذكر شروط العدالة إما على سبيل الإجمال أو على سبيل التفصيل، وهذه الشروط هي : الإسلام، البلوغ، العقل، السلام من أسباب الفسق، وخوارم المروءة، وسأتعرض فيما يلي لهذه الشروط وموقف البخاري منها في صحيحه ومدى التزامه بها(المرجع السابق ص51)

هذا و لتحقيق هذا الشرط وضع البخاري شروطا للعدالة التي يجب أن يتصف بها الراوي أو الناقل للحديث نذكرها فيما يلي :

أولاً : الإسلام :

لا تقبل رواية الكافر من يهودي أو نصراني أو غيرهما إجماعاً. وقد حكى الإجماع على ذلك الغزالي في المستصفى[(6)] والرازي في المحصول[(7)] وغيرهما.

قال الخطيب البغدادي : " ويجب أن يكون وقت الأداء مسلماً لأن الله تعالى قال : { إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا }[(8)] وإن أعظم الفسق الكفر، فإن كان خبر الفاسق مردوداً مع صحة اعتقاده فخبر

---

(4) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية – تحقيق د. أحمد عمر هاشم – دار الكتاب العربي – الطبعة الثانية 1406هـ – 1989م، ص102.

(5) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : المستصفى من علم الأصول – دار الفكر – بيروت ج1 ص157.

6- المستصفى من علم الأصول – دار الفكر – بيروت – ج1 ص156.

7 – المحصول في علم أصول الفقه : تحقيق د. طه جابر فياض العلواني – ط1 – مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض 1400هـ، ج2 ص567.

8-سورة الحجرات، الآية : 6.

الكافر بذلك أولى[9] فالإسلام إذا شرط عند الأداء والتبليغ وليس شرطاً عند التحمل فيصح تحمل الكافر " وقد ثبت روايات كثيرة لغير واحد من الصحابة كانوا حفظوها قبل إسلامهم وأدوها بعده "[10].

وأضرب أمثلة على ذلك من صحيح البخاري – رحمه الله – :

رواية جبير بن مطعم، والتي أخرجها البخاري في صحيحه حيث قال : " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في المغرب بالطور "[11].

ثانياً : البلوغ :

هذا الشرط يتعلق بحالتين من حالات الراوي : حالة السماع والتحمل، ثم حالة الأداء والرواية.

ولقد تنازع العلماء والمحدثون قديماً في ذلك، فمنهم من اشترط سناً معيناً للتحمل، ومنهم من صحح سماع الصغير. وقد ذكر هذا الخلاف الخطيب البغدادي في الكفاية فقال : " قل من كان يكتب الحديث – على ما بلغنا – في عصر التابعين وقريباً منه إلا من جاوز حد البلوغ، وصار في عداد من يصلح لمجالسة العلماء ومذاكرتهم، وسؤالهم. وقيل إن أهل الكوفة لم يكن الواحد منهم يسمع الحديث إلا بعد استكماله عشرين سنة، ويشتغل قبل ذلك بحفظ القرآن وبالتعبد.

وقال قوم : الحد في السماع خمس عشرة سنة، وقال غيرهم : ثلاث عشرة، وقال جمهور العلماء : يصح لمن سنه دون ذلك، وهذا هو عندنا الصواب "[12].

وقد ذهب الإمام البخاري – رحمه الله – في صحيحه إلى صحة سماع الصغير قبل البلوغ، وقد ترجم لهذه المسألة في كتاب العلم بقوله : "باب متى يصح سماع الصغير ؟" وأورد فيه حديثين :

أولهما : حديث ابن عباس قال : " أقبلت راكباً على أتان، وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بمنى إلى غير جدار، فمررت بين يدي بعض الصف، وأرسلت الأتان ترتع، فدخلت في الصف، فلم ينكر لك علي "[13].(المرجع السابق ص53)

ثالثاً : العقل :

9- الكفاية في علم الرواية ص99.

10- المصدر نفسه.

11أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في المغرب، رقم (765)، ج2 ص289 مع الفتح ط دار الريان.

12-الكفاية في علم الرواية – تحقيق د. أحمد عمر هاشم – دار الكتاب العربي – ط2 – 1406هـ – 1986م، ص73. نقلا عن الكافي ص53

13- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب متى يصح سماع الصغير حديث رقم (76) ج1 ص205.

وهو من شروط العدالة المجمع عليها، حكى الإجماع على ذلك الخطيب البغدادي وغيره من العلماء[14] قال رحمه الله :

" وأما الأداء بالرواية فلا يكون صحيحاً يلزم العمل به إلا بعد البلوغ، ويجب أيضاً أن يكون الراوي في وقت أدائه عاقلاً مميزاً، والذي يدل على وجوب كونه بالغاً عاقلاً، ما أخبرنا القاضي أبو عمر والقاسم بن جعفر قال ثنا محمد بن أحمد اللؤلؤي، قال ثنا أبو داود قال ثنا موسى بن إسماعيل قال ثنا وهيب عن خالد عن أبي الضحى عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل "[15] ولأن حال الراوي إذا كان طفلاً أو مجنوناً دون حال الفاسق من المسلمين.(المرجع السابق ص55)

رابعاً : السلامة من أسباب الفسق : (انظرص52)

الفسق هو ارتكاب الكبيرة أو الإصرار على الصغيرة[16] وقد أفاض العلماء في تعريف الكبيرة والصغيرة، وكيفية التمييز بين الصغائر والكبائر وعددها، بل هناك من أفردها بالتصنيف[17] والذي يهمنا هنا هو ذكر مسألتين وقع فيهما النزاع ومحاولة معرفة موقف البخاري منهما.

خامساً : السلامة من خوارم المروءة :

عرفت المروءة بتعاريف كثيرة، جلها يرجع إلى العادات الجارية بين الناس. فقال بعضهم : "المروءة كمال المرء كما أن الرجولة كمال الرجل ".

وقال بعضهم : " المروءة هي قوة للنفس تصدر عنها الأفعال الجميلة المستحقة للمدح شرعاً وعقلاً وعرفاً"

وقال آخرون : " المروءة صون النفس عن الأدناس، ورفعها عما يشين عند الناس " وقيل : "سيرة المرء بسيرة أمثاله في زمانه ". (ص 87).

ومن أحسن تعاريفها " هي آداب نفسانية، تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات "[18].

14- انظر الكفاية ص99، وشروط الأئمة الخمسة ص53، وتدريب الراوي : ج1 ص300.

15-رواه أبو داود بنفس لفظ الخطيب من طريق علي رضي الله عنه – في كتاب الحدود، باب المجنون يسرق أو يصيب حداً ج4 ص560، رقم (4403) بإسناد حسن، وهو حديث صحيح بطرقه.

16- السخاوي : فتح المغيث ج1 ص315.

17- انظر : مدارج السالكين : ج1 ص321، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام : ج1 ص19، والكبائر للذهبي، والزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي، وهما خاصان بهذا الموضوع.

واشتراط العلماء للمروءة سببه : أن الإخلال بها إما يكون لخبل في العقل، أو لنقصان في الدين، أو لقلة حياء وكل ذلك رافع للثقة بقوله[19].

وقد جرى نزاع كبير واعتراض على من أدخل المروءة في شروط العدالة المتفق عليها[20]

ومما يجدر التنبيه إليه هنا – وهو أن اشتراط المروءة والقدح في الراوي الذي يتصف بما هو من خوارمها، إنما هو موكول للعالم الناقد مع إضافة أسباب أخرى قد فصلها الإمام الخطيب البغدادي حيث قال :" وقد قال الكثير من الناس : يجب أن يكون المحدث والشاهد مجتنبين لكثير من المباحات نحو التبذل والجلوس للتنزه في الطرقات، والأكل في الأسواق، وصحبة العامة الأرذال، والبول على قوارع الطرقات، والبول قائماً، والانبساط إلى الخلق(*) في المداعبة والمزاح، وكل ما قد اتفق على أنه ناقص القدر والمروءة، ورأوا أن فعل هذه الأمور يسقط العدالة ويوجب رد الشهادة.(منهج الامام البخاري في تصحيح الأحاديث و تعليلها، ص60)

الشرط الثاني من شروط صحة الحديث، وهو الضبط (انظر ص 92 و ما بعدها) وقبل الخوض في مباحثه يجدر بنا أن نقدم تعريفه وأهميته وآثار اختلاله، وكيفية معرفة ضبط الراوي، ومراتب الرواة من حيث الضبط ...قال الليث : الضبط لزوم شيء لا يفارقه في كل شيء.

وضبط الشيء : حفظه بالحزم، والرجل ضابط، أي حازم[(21)].

وفي اصطلاح المحدثين : نوعان ضبط صدر، وضبط كتاب.

أما ضبط الصدر : فهو أن يثبت الراوي في صدره ما سمعه بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء.أما ضبط الكتاب : فهو صيانة الراوي لكتابه منذ سمع فيه وصححه إلى أن يؤدي منه[22]

. قال الإمام ابن الصلاح – رحمه الله – : " لا تقبل رواية من عرف بالتساهل في سماع الحديث أو إسماعه، كمن لا يبالي بالنوم في مجلس السماع، وكمن لا يحدث بأصل مقابل صحيح ومن هذا

18- طاهر الجزائري : توجيه النظر إلى أصول الأثر – طبعة دار المعرفة – بيروت ص28 – 29.

19- المرجع نفسه ص 29.

20- انظر هذه الاعتراضات والجواب عليها في : التقييد والإيضاح ص114 – 115 وفتح المغيث : ج1 ص316 – 317، وشرح العراقة لألفيته : ج1 ص300 – 303، وتدريب الراوي : ج1 ص305 – 306.

(*) وردت في المطبوع (الخرق) ولعل الصواب ما أثبته.

(لسان العرب : مادة (ضبط) ج7 ص340 ومختار الصحاح : مادة (ضبط) ص245.

([22]) نزهة النظر ص19.

القبيل من عرف بقبول التلقين في الحديث، ولا تقبل رواية من كثرت الشواذ والمناكير في حديثه .. ولا تقبل رواية من عرف بالسهو في رواياته إذ لم يحدث من أصل صحيح. وكل هذا يخرم الثقة بالراوي وضبطه "[23]

2- نقد المتن و شروطه:

. المتن اصطلاح هو: ألفاظ الحديث التي تتقوم بها المعاني وقيل : هو ما ينتهي إليه السند من الكلام وهو من الممانتة وهي المباعدة في الغاية لأنه غاية السند ، المتنأو من ، وهو ما صلب وارتفع من الأرض لأن المسند يقويه بالسند ويرفعه إلى قائله.

إذ لا يعرف أن الحديث شاذ أو غير شاذ إلا بمقارنته بغيره من الأحاديث المخالفة له لذلك فقد راعى المحدثون هذا الأمر عند تعريفهم للحديث الصحيح، فاشترطوا ألا يكوً ن شاذ ولا معلاً ، والعلة غالب ما تكون في الإسناد أما الشذوذ فيكون في المتن وقد يقع في الإسناد، وإذا كان الاعتداد بالمتن لا يكون إلا بعدً التوثق من إسناده فإن الاهتمام بالإسناد في حقيقة الأمر اهتمام بالمتن فلا قيمة للإسناد مجردا عن متنه. (17و ما بعدها

المقياس الأول " عرض الحديث على القرآن " كان القرآن الكريم عندهم هو المقياس الأول إليه عند نقدهم لأي حديث يتعارض مع القرآن فالقرآن كلام االله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الذي حفظوه جميع ونقلوه إلينا نقلاً متواترا عليه ولم يختلفوا في قبول أحكامه وتشريعاته كما أنه الأصل الذي كانوا يرجعون إليه عند لم يقبلوا ما خالفه من أحاديث بل حكموا على رواتها بالوهم والخطأ والاختلاق ، وتركوا الأخذ بها والعمل بمقتضاها لمعارضتها لذلك النص القرآني و حديث سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- فالقرآن الكريم والسنة الصحيحة هما عندهم ليس كلام يمكن أن يختلفا أو يتناقضا ولعل الناقل أخطأ أو نسي أو لم ينقل ما من عند االله تعالى ولا سمعه كله أو فهم من اللفظ النبوي غير ما أراده صلى الله عليه وسلم.

فمن المقاييس التيً استخدمها المحدثون لنقد متن الحديث والنظر في متنه فإن كان مخالف لكتاب االله مخالفة لا يمكن معها الجمع بينهما، ولا معرفة المتأخر حتى يمكن الحكم بنسخ الحديث ، وحكم عليه بالضعف، أو الوضع، وسأذكر نموذجين فقط . من تلك الأحاديث التي ردها المحدثون لأخذه ، وهو مقياس عرض الحديث على القرآن، وذلك خشية الإطالة (ص25 و ما

([23]) علوم الحديث ص107 – 108.

بعدها) مثال: عن أبي هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ":ُ لا يدخلَ الجنة ولد زنا و لا والده و لا ولد ولده " قال فيه ابن الجوزي (110/باب3 في أن ولد الزنا لا يدخل الجنة)-: ثم أي ذنب لولد الزنا حتىَ يمنعه من دخول الجنة فهذه الأحاديث تخالف الأصول (و لا تزر وازرة وزر أخرى) الأنعام 164،

المقياس الثاني: عرض روايات أو طرق الحديث الواحد بعضها على بعض

فمن مقاييس المحدثين في نقدهم لمتون السنة النبوية عرض الروايات المختلفة الواردة في حديث واحد بعضها على بعض، ومن هذا العرض يتبين للمحدث الناقد أمورا لم يكن يتبين له أن بعض الألفاظ من ذلك المتن لو لم يستعرض تلك الرواي من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنها مدرجة من أحد الرواة سواء كان الصحابي هو الذي أدرج تلك الكلمة، أو الجملة، أو غيره من رواة الحديث كما يتبين له أنه نشأ من عدم ضبط أحد الرواة لذلك المتن ، أو أن فيه قلب أحد الرواة لذلك المتن، أو وقع فيه تصحيف، أو تحريف أخل به، وقد يتبين للمحدث زيادة ألفاظ في بعض الروايات أو إحداها ليست في الروايات الأخرى (ص28 و ما بعدها)

المقياس الثالث: عرض السنة بعضها على بعض: لا تقبل الأحاديث المخالفة للسنة الصريحة الثابتة.

المقياس الرابع: عرض متن الحديث على الوقائع و الحوادث التاريخية.

المقياس الخامس: لكاكة لفظ الحديث و بعد معناه. فلا يحتوي على سخافة أو تفاهة .لأن الراوي قد يتصرف و يرويه بفهمه او لغته.

المقياس السادس: مخالفة الحديث للأصول الشرعية و القواعد المقررة (انظر بيع محمد محمد يونس ، شبهة اهتمام المحدثين بنقد السند دون المتن و الرد عليها، مجلة كلية الدراسات الانسانية العدد36، ص451)

المقياس السابع: اشتمال الحديث على أمر منكر أو مستحيل.

استنتاج:

هذه المقاييس و القواعد التي اشترطها المحدثون على المتن و على السند معا تبرز الصرامة و التثبت العلمي و قيمة الحقيقة عند المسلمين ، فكيف لكلام منسوب للسنة ان يتسلل في وسط هذه العيون و الآليات التي تتباعه في مصدره و في محتواه؟ و عند الرجوع لما توصل اليه العلماء المعاصرين خاصة في مجال التحقيق و العلوم الانسانية و الاجتماعية و التجريبية من قواعد لتحقيق

الموضوعية هل هي أكثر من صرامة المحدثين؟ لهذا حاولوا بعض المستشرقين التشويش من زاوية زرع البلبلة في أن المحدثين ركزوا على السند أكثر من المتن، و هذا يدل على عدم توازن منهجهم. لكنهم يجهلون أن المسلمين أمام نص ديني و ليس نص بشري و الاختلاف كبير.

ثالثا : منهج المؤرخين المسلمين

المستقري لكتب التاريخ و كتب الحديث و السيرة النبوية لا يستطيع أن يفصل ما هو من السنة و الرواية عن ما هو من التاريخ العام،و بهذا نستطيع القول :أنهم خلطوا بين السُّنَّة و التاريخ؛بين ما هو تاريخي بالمعنى المنهجي العلمي و بين ما هو من السيرة النبوية التي يختص فأفعال و أقوال و تقارير..الرسول محمد – صلى الله عليه و سلم– ولكن لما كان الدين الجديد الذي نسخ الأديان يحرص على الصدق و الموضوعية حاول العلماء المسلمين تحقيق ذلك وهذا الهدف نفسه الذي سعت إليه النظريات العلمية الحديث. لهذا نحاول ان نضع بعض النماذج في التأريخ لنسحبها على الأسس العلمية فنعرف :هل للمسلمين منهجية بحث علمي في مجال التاريخ؟

كان المحاولات الأولى في هذا المجال مع مؤرخين نذكر منهم :

2- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مؤرخ و مفسر و فقيه، من أكبر الأئمة، ولد في (آمل) عاصمة إقليم طبرستان جنوب بحر القزوين سنة 224هـ، في الفترة التي كانوا يؤرخون بالأحداث دون السنين. و توفي بالكوفة سنة350هـ.

تاريخ الطبري أو تاريخ الأمم و الملوك، أدب المناسك و أدب النفوس، اسهله قائلا : " ذاكرا في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتداء ربنا جل جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم من انتهى إلينا خبره (ج1،ص23)...بوجيز من الدلال..إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضين و جمل من أخبارهم و أزمان الرسل و الأنبياء و مقادير أعمارهم مستخلصا العبر.." ص19.

منهجه في التأريخ :

اعتمد الطبري على مصادر أكثرها اليوم مفقودة، ففي تاريخ الفرس اعتمد على ابن المقفع. و في تاريخ بني إسرائيل اعتمد على قصصهم الواردة في التوراة و القرآن الكريم. و في تاريخ العرب قبل الاسلام اعتمد على محمد بن كعب القرطبي ووهب بن منبه، و في تاريخ الدعوة الإسلامية و سيرة

الرسول صلى الله عليه و سلم على عمر بن الزبير و هشام الزهري، و في تاريخ الخلفاء اعتمد على هشام الكلبي و أحمد بن زهير.

في قراءته للنصوص و سماعه للروايات اعتمد على :

1- منهج الإسناد تماما كما هو الحال عند المحدثين في تعاملهم مع الحديث
2- اعتمد على المشاهدة الخاصة
3- على الأمانة في ذكر الخبر، إذ كان يتصل بطريقة الروايات و الرواة بالتواتر من عصر إلى عصر دون تغيير أو تعليق أو تزوير. ص92 المصدر نفسه.
4- تجنّب إبداء الرأي و موضوعية النقل دون تدخل الذات بشوائبها المذهبية او العاطفية .. و التركيز على دقة الإسناد حيث اتّصل بكثير من العلماء و سمع منهم مشافهة و ورقة مما كتبوا أو احتفظوا به. فالمستقري لكتاب (تاريخ الرسل و الملوك) يجد أنه ساقه في طريق استقرائي شامل بلغت فيه الرواية مبلغها من الدقة و الأمانة و الإتقان و مهّد الطريق لمن جاؤوا بعده كالمسعودي و ابن مسكويه، إذ كان التاريخ قبله أخبارا منقولة، تتناقلها الشفاه و روايات متناثرة تدور حول الأشعار و الأمثال و الأساطير" ص21. و لخص الطبري منهجه في براعة استهلال كتابه فقال:" لم نقصد بكتابنا قصد الاحتجاج لذلك..بل ذكرناه من تاريخ الملوك الماضين و حمل من أخبارهم...و ليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه ممّا اشترطت أنّي راسمه فيه ، إنّا على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، و الآثار التي ***أن مسندها إلى رواتها فيه***، دون ما أدرك ***بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس***؛ إلاّ اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين...غير واصل إلى من لم يشاهدهم و لم يدرك زمانهم.... ***دون الاستخراج بالعقول و الاستنباط بفكر النفوس فما*** يكون كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين. مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه.. فليعلم أنه لم يؤت من قِبَلنا في ذلك، و إنما أتى من قِبَل بعض ناقليه إلينا..و أنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا" ص ص 7-8

فمن خلال هذا النص يتجلى منهج الطبري في التاريخ الذي لم يغادر فيه منهج المحدثين في الإسناد، و الآليات التي استعملها هي نفسها آليات المحدثين في التحقق من الإسناد عن طريق العدل و التجريح لتحقيق نوعا من الموضوعية بتعهده بعدم التدخل في المتن الذي تركه

للقارئ المتبصر. فالأخطاء قد تعتري الرواية من الناقلين. فعلى المستوى العلمي عمله مقبولا من ناحية جهده في جمع الذخيرة و ترتيبها و تقديمها للقارئ أولا، و تحريه إدخال الذات في المتن التي قد تلبسه من شوائبها ثانيا. و من هذه الجوانب دخل عبد الرحمن بن خلدون مؤسسا لمدرسة التاريخ بالدراية عوض التاريخ عن طريق الرواية.

ثانيا: منهج التأريخ عند عبن الرحمن بن خلدون مؤسس مدرسة الدراية (1332-1406)

في البداية نتساءل عن الأسس و القواعد التي وضعها ابن خلدون عبد الرحمن لكتابة التاريخ، و بصورة واضحة المنهج العلمي الذي اعتمده في المقدمة؟

هذا الكتاب (المقدمة) مؤلف وضعه كمدخل لكتاب ضخم و هو كتاب (العبر في ديوان المبتدأ و الخبر..)، حيت جاءت بنظرية واضحة المعالم تعج بسمات النقد و المقارنة و التحليل استعمل فيها أدوات علمية (السبر و التقسيم) و تميّز منهجه بما يلي: 1/ جمع بين التحليل و التركيب، بين الإستقراء و الاستنتاج في البحث الاجتماعي (العمران البشري) و في التأريخhistoire –history–gechehen ، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،ط3،مصر،ج1،ص13. التاريخ فن جم الفوائد غزير المذهب شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم و الأنبياء في سيرهم،و الملوك في دولهم و سياستهم حتى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين و الدنيا" عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر،دار الفكر،ط2، بيروت،2001،ج1،ص13. نستخلص من هذا التعريف معنيين للتاريخ، تاريخ عام يعرف العام من المؤرخين و الناس و تاريخ باطني خاص يمارسه و يعرفه المدققون و المتخصصون يبنى على التعليل للأحداث و الوقائع(يستعملون فيه التفسير العلي السببي) و الربط بينها، لهذا يعتبره ابن خلدون علم مستقل له ضوابطه وقواعده يرتقي إلى المستوى العلمي و تتأسس عليه النظرة التأملية للتاريخ (فلسفة التاريخ).لهذا المؤرخون في نظر ابن خلدون فيئتين، فئة تنقل و فئة تحلل و تنتقد و تبني بناء عِلّيا سببيا.

ما هي الأسس التي بنى عليها التأريخ للوقائع و الأحداث؟

أ/ جمع المصادر (المادة التاريخية) التي تتضمّن الأحداث و الوقائع بالمخطوط و المشافهة، الغثّ و السمين.و هذا لا يتأتى للمؤرخ إلاّ بالحس التاريخي و الفطرة التي تحركه مع القدرة على التمييز و النقد.لهذا نجد ابن خلدون جمع من ابن اسحاق و الكلبي و المسعودي و عن

محمد بن عمر الواقدي و عن سيف بن عمر الأسدي من الغرب الإسلامي حتى الأندلس و من الشرق.

ب/ تجاوز طريقة السرد البسيط للأحداث و الثقة المطلقة في الرواة على غرار ما فعل السابقون، في السرد الآلي و الوصف المباشر للوقائع.

ب/ تكامل الآليات في تحليل الأحداث التاريخية. إنما ذكر التاريخ إنّما هو ذكر الأخبار بعصر أو جيل، فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق و للأجيال و الأعصار،فهو أساس للمؤرخ، تتبني عليه أكثر مقاصده، و تتبيّن به أخباره.

ج/ الإقرار بالرابطة السببية :الأحداث التاريخية لا تسير عبثا بل لكل حادثة علة و سبب، لهذا يجب العودة إلى ربطها سببيا لإعادة تركيبها، و فهمنا للأسباب تزيد في فهمنا للتاريخ و مقاصده.و تساعد على تأمل الحركة التاريخية(فلسفة التاريخ).

د/ النقد التاريخي : و هو أهم مرحلة في المنهج التاريخي الخلدوني؛بدأه من نقد سابقيه من الناقلين و المؤرخين كالمسعودي و الواقدي،و غيرهم ممن نقلوا دون التمييز بين الغث و السمين الذي يعتريه الزيف و الكذب، لأنهم كما رأى لم يعرضوها على أصولها و لا قاسوها بأشباهها و لا سبروها بمعيار الحكمة" ابن خلدون، المصدر نفسه،ص13". لكن ما هي أسس النقد في منهجه؟

1/ عرض الأخبار على أصولها لمعرفة ما لحق بها من تزييف و تحريف و تحصيف..

2/قياسها بأشباهها من الوقائع و الأحداث

3/ سبرها بمعيار الحكمة و العقل، إلاّ ما كان من القرآن و السنة فنلتزم بتصديقه، يمكن الرجوع الى قصة هارون الرشيد و جعفر بن يحي البرمكي في القصة المزيفة لسبب نكبة البرامكة"(انظر،الأنباء في تاريخ الخلفاء،لابن العمراني،ط1،دار الأفاق،القاهرة،2001،ص267-268)، و العقل ميزان الحكم و العمل.و هل العاقل يصدق هذه القصة؟

4/ تحري الدقة و المقارنة في الاحصاء، والاماكن، في الأزمنة، في الطبقات...

5/ تحري الصدق و الابتعاد عن الكذب في الوصف و في النقل دون بيّنة،" لأنّ الناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون" ابن خلدون، ص19.

6/ ربط التاريخ بالعلوم الأخرى،" فإذا يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة و طبائع الموجودات...للمماثلة بين الشاهد و الغائب" ابن خلدون، ص371، و هنا يظهر الاستدلال الخلدوني الذي اعتمده المتكلمون،(قياس الغائب على الشاهد).

من خلال هذه القفزة على نزر قليل من نصوص ابن خلدون يتبين الطابع العلمي الذي انفرد به منهجه في التاريخ، فيكاد ينعقد الإجماع بأنه صاحب النظرية العلمية الجديدة و المنهج العلمي الصحيح في الدراسات التاريخية. و ننظر كيف كان يفكر في القرن الرابع عشر ميلادي . فهل صدق المقصون للعقل الإسلامي في تأسيس المنهج العلمي؟ أليست هذه شهادات حية تؤسس للدليل العلمي؟

المنهج العلمي في الكيمياء (جابر بن حيان تركيزا)

قبل أن نتحدث عن مجهود العلماء المسلمين في الكيمياء و الطب و الطبيعيات ننبه إلى ما يطفو على صفحات كتب أصحاب النزعة المركزية الغربية في هذا المجال؟ . إنه كثير من الكتب تشيد بالمنهج لأرسطو و لفرانسيس بيكون صاحب الأرغانون الجديد1561–1626، و ديكارت في قواعد المنهج 1595–1650.بزعمهم إنهم الأوائل الذين ثاروا على المنهج الأرسطي، فهل المسلمون تلاميذ فعلا؟

قبل أن نخوض في هذا المبحث الذي تتجلى فيه مجهودات المسلمين في التأسيس للمنهج العلمي الذي يعتبر حقا ثورة على الأرغانون في مجال الطبيعيات، رأينا إنّه من الضروري تبيان مصدر المنهج والمعرفة عند المسلمين لنعرف هل هو دخيل و منقول أم أصيل نابع من مصادر الإسلام ذاتها؟

عندما نتحدث عن الإسلام يعني أننا نتحدث عن القرآن الكريم،ففي غيرما آية يحث على المنهج و الاستدلال و آدوات المعرفة، كما يرشد الناظر إلى التأليف بينها، مثلا: (فارجع البصر..فارجع البصر) شجع على الترتيب و النظام و التناسق في الكون، القوانين الثابتة، الترابط و التوازن، التدبر و الكشف عن الأسباب..كلها إشارات تبيّن أنّ الدين الإسلامي يدعم النظر، يحث على اكتشاف القوانين التي تحكم ظواهر الكون.هذا الفهم نجده في حمولة الكثير من العلماء المسلمين المجددين نذكر منهم : أولا: جابر بن حيّان 737–813

في كتب تاريخ العلوم عندما يذكر جابر تذكر الكمياء، إنه الانتقال من الجزئيات إلى الكليات عن طريق التطبيق. تدل كتبه و المخطوطات التي تركها خلال القرنين الثالث

و الرابع هجري في ما نشره المستشرق (كراوس) مختار من رسائل جابر ابن حيان، أو (كتاب السبعين) أو (كتاب الخواص الكبير) أو كتاب التصريف) ..و غيرها نلمس العبقرية عند هذا العالم و تجاوزه لنظرية القياس الأرسطية و التأسيس لإبستمولوجيا الإستقراء. و مزج بين الاستقراء و المنهج الأصولي الفقهي و الأصولي الكلامي عند المتكلمين في قياس الشاهد على الغائب. حتى لا نخلط بين هدفها المنهجي و تاريخ العلم نركز على القواعد المنهجية أكثر. فأول فكرة يعتبرها مفتاح المنهج العلمي عنده في ***فكرة استحالة المعادن*** أي إمكانية تحول ماهية المعدن إلى معدن آخر (هذه ضد ثبات الهوية عند أرسطو)، لهذا الطبائع تتغير، و لكن بالتدريب (التجريب). و من خلال هذا النص نستطيع الوصول إلى منهج جابر بن حيان يقول: يجب أن تعلم أن نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه قط. دون ما سمعناه أو قيل لنا، و قرأناه بعد أن امتحناه، فما صح أوردناه و ما بطل رفضناه، و ما استخرجناه نحن أيضا و قايسناه على أقوال هؤلاء القوم...فمن كان دربا كان عالما حقا، ومن لم يكن دربا لم يكن عالما، و حسبك بالدربة في جميع الصنائع...إن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل.(انظر، جابر بن حيان، كتاب الخواص،نشرة كراوس 1354هـ). في هذا النص القصير يتجلى المنهج التجريبي الاستقرائي، و مكانة التجربة أو الامتحان أو الدربة بلغته

خطوات المنهج عند جابر بن حيان؟

نختصرها فيما يلي : أ/ إعمال باليد (تحضير الادوات و صناعتها و احضار العينة) ب/ إعمال بالعقل فيما قد حصلته اليد للخروج بنظرية مفروضة. ج/ تطبيق الفرض العقلي على الواقع. قد أخذ طريقة المتكلمين في (قياس الغائب على الشاهد. والجدول فيه ما يوضح الطريقة :

المجانسة	مجرى العادة	الآثار
الأنموذج :يقوم بالاستدلال الجزئي على الجزئي و بنماذج أخرى للوصول إلى الحكم الكلي	التعقيب و الاقتران عند الفقهاء(القياس).عادة يقوم على المشاهدة و على التجربة.و قوة هذا الاستدلال تكون بحسب كثرة النظائر المشابهة، المماثلة. ميل النفس إلى توقع تكرار الحادثة التي	الدليل النقلي أو شهادة الغير، أو السماع. يعوّل على ما شاهده ثم تأتي شهادة الغيركدليل لتأييد شهادته(أنكر جابر على جالينوس استناده على أقوال الأجداد و الآباء و على أقوال

	حدثت. زيادة احتمال التوقع	المنجمين

ما ثبت عن جابر في نصوصه أنه اعتمد في التجريب على : الإذابة ، التقطير ، الترشيح،التبخير . هذه الطرق استعملها جابر بن حيان لفصل المعادن عن بعضها و السوائل أيضا، وتوصل إلى نتائج في غاية الأهمية و هي: كل معدن و له قدرة تحمل خاصة إذا تجاوزها ذاب و انفصل.

و لهذه الطرق ابتكر جابر أدوات التطبيق (آلة التسخين، الأنابيب، المقاييس، آلة التقطير..) يعني جمع بين النظرية و التطبيق، بين العلم و تطبيقاته. ووصل إلى عدة اكتشافات كان لها الأثر الكبير في الصناعة و الطب. مثل:

اكتشاف حمض النتريك الهيدروكلوريد، استخدام ثاني أكسيد المانغنيزيوم في صناعة الزجاج و تبييضه. اختراع جهاز التقطير. و انتهى إلى نظرية التوازن في الطبيعة.

إنه توصل إلى امتلاك أسرار الكيمياء.

ثانيا: الحسن بن الهيثم و إسهامه في المنهج التجريبي في الطبيعيات

لا شك في أن ذكر اسم ابن الهيثم يقترن دائما بعلم الضوء و البصريات عالم رياضي و فيزيائي كبير غطى القرون الوسطى (الظلام في أوروبا)، مازالت نظرياته سارية إلى يومنا هذا، توفي سنة 411هـ-1020م،سبق كيبلر و ليناردودافنشي و روجر بيكون في التأسيس للمنهج التجريبي، يرجع الفضل في إعادة بعثه الاستاذ مصطفى نظيف- في كتابه، الحسن بن الهيثم، بحوثه، كشوفه- الذي جمع و حقق كتبه و مخطوطاته. اطلع على تراث سابقيه من اليونانيين فتبيّن له أنّها آراء تخمينية متنافرة تفتقر إلى السند العلمي التجربي الواقعي، بل، بقيت سجينة المنهج الاستنتاجي الأرسطي الذي ينطلق من الكليات.

هذا، و لمعرفة ما إذا أسهم ابن الهيثم في وضع المنهج الاستقرائي التجريبي، نحاول أن ننظر في نصه الذي استهلل به كتاب المناظر يقول فيه : " ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات، و تميّز خواص الجزئيات، و نلتقط باستقراء ما يخصّ البصر في حال الإبصار و ما مطرد لا يتغيّر، و ظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نرتقي في البحث و المقاييس على التدرج و الترتيب، مع انتقاد المقدمات و التحفظ في النتائج. و نجعل غرضنا في جميع ما نستقريه و نتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى،

و نتحرى في سائر ما نميّزه و ننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي يثلج الصدر..ونظفر مع النقد و التحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف و يتجسم بها مواد الشبهات." الحسن بن الهيثم، بحوثه و كشوفه، ج1، ص51-77).

هذا يلخص كل ما يتعلق بالمنهج العلمي و الروح العلمية التي تشترط في البحث. قد صرّح بالاستقراء كمنهج يناسب الموضوعات الحسية كخلاف للمنهج ألاستنتاجي الأرسطي الذي ينطلق من الكليات المجرده التي لا تمثيل لها في الواقع. ثم انتقل إلى الفحص (التجريب) والمقاييس، الترتيب، نقد المقدمات. وهنا يكمن الاثبات بالتجربة كبرهان عوض القياس العقلي ، ثم تعقل النتائج للوصول إلى الحقيقة العلمية التي يصطلح عليها في العلم الحديث بالقانون العلمي.

هذا، و يدعم ابن الهيثم منهجه بخصائص الروح العلمية وهي النزاهة و الموضوعية و روح الدقة..و إذا تساءلنا عن مصدر المنهج عند ابن الهيثم؟ سنجد الإجابة واضحة: إنّ أصالة منهجه في الطبيعيات يعود إلى منهج المتكلمين و الأصوليين و هو قياس الغائب على الشاهد. قياس ما التقطه و أبصره و رتبه للوصول إلى الغائب و هي الحقيقة العلمية التي كانت مجهولة في بداية بحثه. ثمّ أن الأخلاق العلمية التي أمر بها ، فشروطها هي نفسها التي نجدها عند المحدثين في اختبار السند و تفحص نزاهة الرواة أو ما يعرف عند علماء مصطلح الحديث بالمنهج الاسترادادي.

فعن طريق هذا المنهج الجديد توصل ابن الهيثم إلى فك الطبيعة في مجال البصريات و برهن على انتشار الضوء على سموت الخيوط المستقيمة، و حلل ظاهرة الإبصار بخلاف ما كان يعتقد بطلموس ، و أنشأ أجهزة صارت فيما بعد أساس كل بحث علمي ، إنه آلة التصوير التي سماها بالخزانة السوداء التي تطورت في عصرنا و صارت كل العلوم تبنى عليها. فمن خزانة ابن الهيثم إلى الميكروسكوب إلى التليسكوب إلى التصوير بالأقمار الصناعية.

إنّ الأسبقية إلى ابتكار المنهج الاستقرائي فكرة واضحة ، لكن يبدو لنا، أن العبرة ليست بالأسبقية في الميدان، و إنما في الاستمرار و الاستثمار في النظريات العلمية و بناء الحياة على العلم . و هذا الذي ضيعته الأمة الإسلامية بسبب الإيديولوجيات البائسة و ثقافات النزاع العقيمة، التي أحلت العلماء مكانة غير لائقة و أخضعت البحث للاقتصاد و السياسة.

خلاصة :

من التحليلات السابقة التي عرجنا فيها على نماذج بسيطة ، من المحدثين إلى التجريبيين نستطيع أن نبني حججا كثيرة نرد بها على خصوم العقل الإسلامي المتميّز، و نعرف أصالة المنهج عن المسلمين و الروح العلمية التي هي شرط من شروط إسلام الإنسان. و ميثاق العلم الذي يخدم الإنسان بدلا من الفساد في الأرض بهلاك الحرث و النسل باسم العلم و الحروب الجديدة.

إن العودة إلى متاحف العالم الغربي فيه ما يكفي كبرهان لوجود المنهج و ابستمولوجيا العلوم عند المسلمين، و تبقى الرسالة معلقة في عنق الخلف.